

جمال الدين بن منظور

صاحب « لسان العرب »

نبغ في القرن السابع الهجري عالم من جهاذة عماء اللغة ، ومن أكبر المصنفين في معاجمها اللغوية ، هو صاحب دائرة المعارف اللغوية الكبرى (لسان العرب) العلامة جمال الدين محمد بن منظور والمشتهر أيضاً بابن المكرم الأفرنجي . وقد ذكر المؤرخون أنه ولد في سنة ٦٣٠ هجرية وتوفي في سنة ٧١١ هجرية ، ذكر ذلك كل من صلاح الدين الصفدي والحافظ ابن حجر والحافظ السيوطي وغيرهم ممن عنوا بتراجم الرجال في العصور الإسلامية الزاهرة ، غير أن أولئك المؤرخين لم يذكروا مسقط رأسه ونشأته وأسرته التي ينحدر منها هذا الجيّد الكبير ، غاية ما هنالك أنهم يترجمونه ترجمة موجزة وينسبونه تخميناً وبلا تحقيق إلى مصر ، لأنه بقي فيها مدة وتولى فيها رئاسة ديوان الانشاء . وبقاؤه في مصر وتوليه لتلك الرئاسة أمر لا شبهة فيه ، غير أن الذي يتبع الحقائق من مظانها ، يجد أن ابن منظور ينحدر من سلالة الصحابي الجليل ربيعة بن ثابت الأنصاري دفين (البيضاء) بليبية ، وهو حاكم هذه البلاد في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، ولقد سرد مؤلف لسان العرب نسبه ورفقه إلى هذا الصحابي الجليل في مادة (ج ر ب) من تأليفه المذكور ، كما أن المتتبع لتلك المظان يجد أن جمال الدين بن منظور تولى قضاء مدينة طرابلس الغرب مدة من الزمن ،

والمتابع أيضاً لتاريخ الأسر القديمة في هذه الديار الليبية ، يجد من ضمنها أسرة عريقة جداً كانت بمدينة طرابلس الغرب وتعرف بأسرة ابن مكرم ، وقد انقضت هذه الأسرة الكريمة منذ قرن من الزمن على التقريب ، فإذا جملنا هذه الحقائق التاريخية بعضها الى بعض ، وجعلنا رائدنا خدمة التاريخ الإسلامي الذي لا تشوبه الأهواء والأغراض والعصبية الإقليمية ، اتضح لنا أن أسرة ابن منظور من الأسر التي استقرت في ربوع ليبيا منذ الفتح الإسلامي لها ، فالتاريخ يحددنا أن جده الأعلى كان حاكماً بها وأنه دفن (البيضاء) ، وأن جمال الدين بن منظور نفسه كان قاضياً لمدينة طرابلس الغرب ، وأن أعقابه المشهورين بآل ابن مكرم كانوا بمدينة طرابلس وبشاجوراء التابعة لها ، فهذه الأدلة الثلاثة تبرهن على أن ابن منظور نشأ في ربوع طرابلس هو وأسلافه وأعقابه أيضاً ، وأن ما ذكره بعض من المؤرخين من أنه مصري الأصل ، لا أساس له من الصحة ، غاية ما هنالك أنه أقام ردها من الزمن في الديار المصرية مثل غيره من كبار العلماء والمؤرخين ، كعبد الرحمن بن خلدون التونسي وأثير الدين أبي حيان الفرناطي وابن حجر العسقلاني وابن جبير الأشبيلي وأبي العباس المرسي وغيرهم من مشاهير علماء المغرب والأندلس ، وليس من الانصاف والأمانة العلمية أن ينسب كل من أقام ردها من الزمن في مصر في الأمصار إليه ، بل الأمانة العلمية تقتضي أن نرد الأمور الى أصولها ، وأن نبين الحقيقة كما هي ، وأن ننوه بعلماء العرب ، سواء كانوا مصريين أو ليبيين أو شاميين أو عراقيين ، وأن ننسبهم الى ديارهم التي درجوا منها ونشأوا فيها ، وبذلك نحافظ على الحقائق ، إذ التاريخ أمانة عظيمة ، وسلم صعب المرتقى ، فهو منزلة أفهام ومنزلة أقدام كما قال صاحب «العبر وديوان المتبدا والخبر» ، وكتاب «لسان العرب» الذي نحن بصدد التعريف بمؤلفه رحمه الله ، هو أكبر قاموس

موجود الآن للغة العربية ، وقد بقي محفوظاً من أيدي البلى وطوارق الحدثان الى عصرنا هذا ، ولم يلحق بأمثاله من كتب اللغة كالحكم والمحيط الأعظم لعلي ابن سيده المرسي ، والعباب الزاخر واللباب الفاخر لرضي الدين الصاغاني ، والجامع للقرار القيرواني ، والمستوعب لأبي غالب البتاني ، والبارع لأبي علي القالي ، واللامع المعلم العجاب الجامع بين الحكم والعباب لمجد الدين الفيروزابادي . وبقاؤه سليماً طوال هذه القرون سر خصه الله به ، وهو يحتوي على ثمانين ألف مادة من كلام العرب ، وبذلك يزيد على القاموس المحيط للفيروزابادي بمشرين ألف مادة ، كما أنه يزيد على صحاح اللغة للجوهري بأربعين ألفاً من المواد ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء إن الله لود فضل عظيم . ويقول الصلاح الصفدي في نكت الحميان : إن ابن منظور بلغت مؤلفاته خمسمائة مجلد ، حتى إنه بسبب انكبابه على التأليف والتدقيق والتحقيق فقد بصره في السنين الأخيرة من عمره . والمراجع التي اعتمد عليها ابن منظور في تأليف لسان العرب هي : الجمهرة لابن دريد ، والتهذيب للأزهري ، وصحاح اللغة للجوهري ، وحواشيه لابن بري ، والحكم لعلي بن سيده المرسي ، والنهاية في غريب الحديث والأثر لأبي السماعات المبارك ابن الأثير ، هذه هي الأسماء التي استقى منها صاحب لسان العرب ، بخلاف اللذان الأخرى التي لم ينبه عليها في خطبة كتابه المذكور . ومن تأليفه القيمة « نثار الأزهار في الليل والنهار » وهو مطبوع في مطبعة الجوائب ، وقد اختصر تاريخ ابن عساكر الدمشقي في نحو ربه ، كما أنه اختصر الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ومن شعره وقد كتبه الى بعضهم :

بالله إن جزت بواد الأراك وقلت عيدانه اخضر فاك
فابث الى عبدك من بعضها فانني والله مالي مواك

ولا يخفى على الفطن الأديب ما فيه من ثورية لطيفة . والخلاصة أن جمال الدين
ابن منظور هو أحد أقطاب العماء الذين تجمل بهم القرن السابع وبعض القرن
الثامن ، ورحم الله فيلسوف الشعراء أبا العلاء المعري حيث يقول ، وكأنه
يعني بذلك ابن منظور وأمثاله من رجال العلم والفضل والأدب :

جمال ذي الأرض كانوا في الحياة وهم بعد الممات جمال الكتب والسير

علي الفقيه حسن

(طرابلس الغرب)

